The impact of culture on language and thinking

Dr. Loay Omar Badran*

(Received 15 / 10 / 2022. Accepted 12 / 1 / 2023)

□ ABSTRACT □

The cases of language, thinking and culture are still gaining a great attention by students on the levels of vocabulary, relativity and differences. Also, language has a crucial role in culture and communications. And there is a massive role of which culture affects language; as Crumch sees that culture also affects "the usage of printed language as it gives the printed language a social perspective, and cultural traditions give the text a passport to reach the readers easily because the most impoertant thing is not what we write, or to whom we write or the circumstances we write in; but the most important thing is the type of the text we are providing…allowed by the society's cultural traditions that are found within the language, or those we call forms of interaction or interpretation that are parts of texts that culture exposes to the language users."

By this, the effect between language and culture is equal and each one of them has an impact on the other.

This research has three parts; the first discusses the meaning and the concept extensively, the second part discusses the reasons behind the formation of language, culture and thinking, while the last part discusses the relationship between language and thinking, and language and culture.

Key words: language, culture, thinking**.**

Copyright **:**Tishreen University journal-Syria, The authors retain the copyright under a CC BY-NC-SA 04

* **Associate professor – Zayed University - Dubai**

تأثير الثقافة على اللغة والفكر

د. لؤي عمر بدران*

(تاريخ الإيداع 15 / 10 / 2022. قبل للنشر في 12 / 1 / 2023)

□ ملخّص □

ما زالت قضايا اللغة والفكر والثقافة تأخذ اهتماما كبيرا عند الدارسين على مستوى المصطلح وعلى مستوى التقاطعات والافتراقات فيما بينها، كما أن للغة دورا مهما في الثقافة وإيصال مفاهيمها وخصوصياتها للطرف الآخر.

بيد أن هناك دورا تؤثر فيه الثقافة في اللغة إذ ترى كرامش أن الثقافة تؤثر بدورها على "استخدام اللغة المطبوعة فهي التي تمنح اللغة المطبوعة بعدا اجتماعيا وتمنح الأعراف الثقافية النص جواز المرور إلى القارئ، فالمهم ليس ما نكتبه أو لمن أو في أية ظروف، ولكن المهم هو نوع النص الذي نقدمه.. تسمح به الأعراف الثقافية للمجتمع وهذه الأشكال التي تتم داخل اللغة أو التي نسميها أشكال التفاعل والتفسير إنما تشكل جزءا من النص الروائي الذي تفرضه الثقافة على مستخدمي اللغة" وبذا يكون التأثير متبادلا بين اللغة والثقافة ولكل منهما دور مؤثر في الآخر.

من هنا جاء هذا البحث في ثلاثة أجزاء جرد الأول منها لتقعيد المفهوم والمصطلح على شكل توافقي، وجرد الجزء الثاني لعوامل تشكل اللغة والفكر والثقافة، في حين جرد القسم الأخير لعلاقة اللغة بالفكر من جانب وعلاقة اللغة بالثقافة من جانب آخر.

الكلمات المفتاحية: اللغة، الفكر، الثقافة.

حقوق النشر : مجلة جامعة تشرين- سورية، يحتفظ المؤلفون بحقوق النشر بموجب الترخيص CC BY-NC-SA 04

*أستاذ مشارك – جامعة زايد – دبي

مقدمة

القضية الأولى (المفاهيم)

- **مفهوم اللغة (لغة)**

وهي الكلام، جاء في لسان العرب: "وقال الكسائي: لغا في القول يلغى، وبعضهم يقول يلغو، ولغي يلغى لغة، ولغا يلغو لغوا: تكلم وفي الحديث: من قال يوم الجمعة وإمام يخطب لصاحبه صه فقد لغا "أي تكلم.... واللغة: اللِّسْن وحدها أنها أصوات يعبر بها قوم عن أغراضهم" (1).

- **مفهوم اللغة اصطلاحا**

اللغة اصطلاحا بأبسط صورها هي ما يعبر فيه الإنسان عن غرضه، وعرفها دو سوسور بأنها "شيء محدد تحديدا واضحا، ضمن الكتلة غير المتجانسة لعناصر اللسان ويمكن تحديد موقعا في الجزء المحدد لدائرة الكلام في المكان الذي ترتبط فيه الصورة السمعية بالفكرة، فهي الجانب الاجتماعي للسان تقع خارج دائرة الفرد الذي لا يستطيع أبدا أن يخلقها أو يحورها بمفرده فلا وجود للغة إلا بنوع من الاتفاق يتوصل إليه أعضاء مجتمع معين وعلى الفرد أن يقضي فترة معينة يتعلم فيها وظيفة اللغة"(2).

إذن دو سوسور لا يفصل اللغة عن محيطها التواصلي الاجتماعي إذ تقتضي اللغة مرسل متكلم ومستقبل مستمع، وهي كما يبدو تحتاج الدربة والوقت فلا يمكن أن تكون اللغة إلا مكتسبة وتنأى بنفسها عن غرائز البشر.

وتناقلت الدراسات مفهوم اللغة فيما بينها وألصقت مفهومها بالكلام ومن ذلك ما تبدى في تعريف اللغة على أنها "الكلام ولها صورتان الصورة الصوتية وهي الكلام المنطوق والصورة المكتوبة وهي الكلام المرسوم ومفرد الكلام الكلمة وهي اللفظة التي يتلفظها اللسان، ولما كان اللسان يلفظ الكلام سميت اللغة اللسان "(3)، والذي يبدو من هذا التعريف اتفاقه مع تعريف سوسور على أنها الكلام مع أن سوسور جعلها جزءا من دائرة الكلام، ويبدو أن فكرة اللسانيات جاءت وتطور المفهوم الذي رد مصدر الكلام للسان، مع أن هناك جدلا في هذا الرأي فثمة باحثون وجدوا فرقا بين اللغة وبين الكلام.

بيد أن الإجماع في تعريف مفهوم اللغة ظهر بجلاء في المسألة الاجتماعية التواصلية وهذا الشأن هو العامل الذي يكاد يكون مشتركا عند جل الباحثين اللغويين فهناك من قال إن اللغة "هي الحقيقة الاجتماعية بأوفى المعاني تنتج من الاحتكاكات الاجتماعية؛ هذه أم المسائل"(4).

وأية لغة من وجهة نظر مجتمعية قومية تعني اللغة القياسية، واللغة القياسية تعني "شفرة لغوية مصطنعة تستمد قوتها من العرق تتألف من عدد كبير من اللهجات التي يستخدمها مجتمع قومي في الحديث ومفروضة بوصفها الشفرة القومية "(5)

ونخلص من الفهم السابق أن اللغة هي الوسيلة التي يعبر فيها الناس عن أغراضهم من خلال تواصل يتمحور في حاجة أو رغبة، تقع خارج حدود الفرد وتحتاج إلى اتفاق اجتماعي.

- **الفكر (لغة)**

والفكر لغة كما عرفته المعاجم إشغال العقل في الشيء والتأمل فيه ويقال "الفَكر والفِكر: إعمال الخاطر في الشيء ويقول الجوهري: التفكر التأمل "(6)

- **الفكر (اصطلاحا)**

لم يبتعد مفهوم الفكر اصطلاحا كثيرا عن المفهوم اللغوي إذ إنه يعني الدلالة على عمليات التفكير العقلي المتراكم نتيجة الإدراك للمظاهر المحيطة.

ودل أحد الباحثين بالفكر على التفكير فرأى فيه "نتائج عمليات التفكير والتأمل العقلي التي يقوم بها الإنسان بوصفه كائنا عاقلا مفكرا"(7)، وفي مجمل مفهوم الفكر يخلص ساجد صبري إلى شيء من التفصيل وهو يقعد لمفهوم الفكر، إذا يقول إنه "مجموعة من الآراء والمبادئ والأفكار السائدة لدى مجموعة بشرية معينة وخلال فترة زمنية محددة ولأن الإنسان في معظم الأحوال هو رد فعل لعصره فإن فكر الإنسان هو تعبير عن فرض لا القيم والثقافات والأفكار والنظريات القائمة في مجتمعة تؤطر تصوراته تجاه الكون والإنسان"(8)

نخلص من الفهم السابق أن الفكر هو نتاج عمليات التفكير يتبلور عند مجموعة من الناس في زمن محدد، يعمل فيه الذهن في التأمل بالظواهر المحيطة في المكان للوصول إلى تبني الآراء فتصبح محل اتفاق مجتمعي.

- **الثقافة (لغة)**

ارتبط مفهوم الثقافة عند الغرب بمفهوم الزراعة، بيد أنه ارتبط عند العرب بالذكاء والفطنة والحذق والفهم، فيقال " رجل ثقف: حاذق فهم.. ثقف الشيء وهو سرعة التعلم.. وهو غلام لقن ثقف أي ذو فطنة وذكاء"(9)

- **الثقافة (اصطلاحا)**

يبدو أن مفهوم الثقافة اصطلاح شائك في أكثر من رؤية وفق ما تناقلت الدراسات، ذلك لصلته بمصطلحات أخرى قريبة منه من مثل الحضارة والمدنية إذ مازال هذا المفهوم يحتمل أكثر من جانب يشوبه الغرابة والغموض أحيانا، وأظن أن الجانب الفلسفي لهو المسؤول عن ذلك الغموض كون الفلسفة قد أخذت على عاتقها خلق المصطلحات، ومهما يكن الأمر كانت بواكير نشأة هذا المفهوم تعني "ذلك المركب الذي يشتمل المعرفة والعقائد والفن والأخلاق والقانون والعرف وكل القدرات والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان من حيث هو عضو في مجتمع"(10)

ويرى أحد الباحثين أن الثقافة هي "الأساس الذي تقوم عليه الحضارة الإنسانية وهي – أي الثقافة تشمل كافة نواحي الحياة" (11)

ونفهم من هذا أن الرافد الحقيقي لأية حضارة إنسانية هي ثقافة تلك الحضارة فهي ركنها الأساسي، وهذا يعني أن الثقافة تكاد تكون مرادفة للحضارة وهذا ما تبدى في إجماع كثير من الآراء البحثية.

وعلى الرغم من هذا الإجماع إلا أن الخلط في المصطلح ما زال المعضلة، فمثلا الحضارة البدائية كانت حضارة بدون ثقافة في حين تقوم حضارة الآلة الحديثة على ثقافة العلم مع إغفال ثقافة الآداب والفنون (12).

والثقافة في غير موضع هي(13) العضوية في مجتمع خطاب يشترك في فضاء اجتماعي وتاريخي واحد ونسق مشترك من المعايير في الفهم والاعتقاد والتقييم والتصرف، هي مجتمع الخطاب نفسه، هي نسق المعايير ذاته.

وحتى نخلص من هذا العرض ونقترب أكثر من المفهوم لا بد من الإشارة إلى أن الثقافة تتضمن "منهج النشاط لإنساني (السلوك) والاستمرارية والتراكم (التجميع) (14)، وبذا لا يمكن أن تكون الثقافة وليدة السرعة إذ إنها تراكمية السلوك واستمراره.

القضية الثانية

تشكل اللغة والفكر والثقافة

- **تشكل اللغة**

تعد اللغة واحدة من أهم الابتكارات البشرية عبر التاريخ والتي كان لها الدور الأكبر في تشكل الحضارات وتشكل الفكر الإنساني والثقافة الإنسانية على أنواعها، وهي كما أشير سابقا وسيلة التواصل الاجتماعي بين بني البشر.

واللغة كما أجمع عليها اللغويون هي كائن حي ينمو ويتطور، ولكن هذا الكائن لن تكتب له الاستمرارية في النمو بمنأى عن الكائن البشري وإنه "من الباطل أن تعتبر اللغة كائنا حيا مثاليا يسير في تطوره مستقلا عن بني الإنسان متجها نحو غاياته الخاصة"(15).

وهذا الكائن لم يخلق من العدمية وهو حاجة سيكولوجية لا تنفك عن الانفعال، وهو لا يتشكل تبعا للحاجة السيكولوجية فحسب، بل يعتمد في تشكيله وتطور أدواته وسياقاته اللغوية اعتمادا كبيرا ووثيقا على "الظروف التاريخية فهو يعتمد على المسكن ويعتمد على نوع الحياة ويعتمد على تشارك حياة الشعوب"(16)

إذن تشكل اللغة جاء من خلال وصفها نظاما معتمدا على ظروف معينة سيكولوجية واجتماعية.

وبدأ تشكل اللغة من خلال العلامة / الإشارة، فالإشارات هي فكرة أصل اللغات وهي مرحلة سابقة للكلام الذي دان بشكله إلى أسباب طبيعية، فالقدماء "لم يألفوا التعبير بالألفاظ عن أحر ما كانوا يقولونه، بل بالإشارات، ما كانوا يقولونه، ولكن كانوا يبدونه"(17).

ويذهب فندريس أيضا الى أن العلامات / الإشارات أيضا كانت بدءا تشكل اللغة ويرى أنها أصل خلق اللغة بحيث تكون هذه العلامات عنصرا "من عناصر لغة ما دام هناك شخصان قد اتفقا على استعمال هذه العلامات في تبادل أمر أو رأي"(18).

وإن كانت الإشارة تقتضي اللغة البصرية والحركية لا السمعية إلا أن دورها التواصلي لا يقل عن اللغة المنطوقة، بل قد تكون أبلغ من اللغة المنطوقة، فهذا الشاعر العربي يرى في اللغة الإشارية يقينا دامغا على وصول رسالة الحبيبة يقول:

أشارت بطرف العين خيفة أهلها إشارة مذعور ولم تتكلم

فأيقنت أن القلب قد قال مرحبا وأهلا وسهلا بالحبيب المتيم

فالعرب كانوا قد أدركوا بلاغة، لغة الإشارة شأنهم في ذلك شأن النظريات الغربية اللسانية، وعرفوا أن "أبلغ اللغات هي تلك التي كانت الإشارة فيها قد قالت كل شيء من قبل الكلام" (19).

وبعد الإشارات جاءت مرحلة الكلام وهذا يعني تحول الإشارات الى ما يعرف بالحدث الاجتماعي إذ يقتضي الكلام مرسلا ومستقبلا وبالتالي الوصول باللغة إلى مرحلة النطق بعد أن أُعطيت العلامة / الإشارة قيمة رمزية، ولكن تشكل الكلام يقوم على عامل يشكله هو العاطفة "فالعواطف هي التي جعلت ودفعت الإنسان إلى التكلم"(20).

وهذه العاطفة بوصفها دافع الإنسان إلى الكلام كما يرى روسو هي ذاتها العملية النفسية التي تحدث عنها فندريس بوصفها دافع الكلام أيضا إذ يقول: "وحتى تأخذ العلامة قيمة مستقلة عن الشيء أن تكون هناك عملية نفسية هذه العملية النفسية هي نقطة البدء في لغة الإنسان"(21)

وللوصول إلى مرحلة الكلام لا بد من إعمال العقل لأن مرحلة الكلام هي نشاط اجتماعي، ويخلص فندريس في هذا الجانب إلى أن اللغة "لم تولد كحدث اجتماعي إلا يوم أن وصل المخ الإنساني إلى درجة من النمو تسمح له باستخدامها فلم يتأت لكائنين بشريين أن يخلقا لغة فيما بينهما إلا لأنهما كانا ممهدين لهذه العملية"(22).

ورؤية روسو في أن العاطفة هي عامل الكلام جعلته يرد مسألة التشكيل اللغوي بتعبيره الأول إلى المجازية، بمعنى أن تعابير اللغة الأولى كانت مجازية ويقول "ففي البداية لم يتكلم الناس إلا شعرا ولم يخطر ببالهم أن يفكروا إلا بعد زمن طويل" (23).بيد أن هذا الرأي فيه نظر، فإن كنا نتفق معه في أن العاطفة هي دافع الكلام إلى حد ما، إلا أن هذا لا يعني أن اللغة في خلقها بدأت مجازية، ويبدو أنه اعتمد في رأيه هذا على ما وصلنا من التراث اللغوي الإنساني القديم من ملاحم شعرية وأساطير اقتضت لغتها اللغة المجازية والمخيال.

وأسهم العرب قديما وحديثا بدراسة مسألة تشكل اللغة ونشأتها من وجهة التصور الإسلامية انطلاقا من الآية القرآنية الكريمة في قول الله عزوجل (وعلم آدم الأسماء كلها): البقرة: 31.

وهذا ما دعا كثيرا من الباحثين إلى اعتبار اللغة من عند الله علمها لآدم وتوارثها أحفاده من بعده وأصبحت لغة الأرض التي تشكل منها المجتمع البشري.

وهذه اللغة المنزلة من عند الله تعالى وفق المنظر أو التصور الإسلامي إنما هي اللغة العربية واستدلوا بذلك على لغة القرآن الكريم التي جاءت عربية مبينة، ولما كانت لغة القرآن الكريم هي العربية ولما كان النبي محمد عليه الصلاة والسلام امتدادا للرسل والأنبياء وخاتمهم فهو امتداد لآدم وللغته، وهذا الامتداد اللغوي يعني امتداد اللغة العربية من زمن آدم عليه السلام (24).

ورد كثير بعض الدارسين أصل نشأة اللغة إلى الاصطلاح والتواضع كما يتبدى هذا في رأي ابن جني.

وارتبط تشكل اللغة بصوت الطبيعة ومما يدعم هذا الرأي وجود الدوال المشتركة في اللغات القديمة والحديثة التي كانت على ما يبدو من أصوات الطبيعة المسموعة مما جعل اللغات تتشارك في بعض الألفاظ ذات المعنى الواحد، ويرى الأب أنستاس ماري أن المصطلح الغربي والمصطلح العربي قد يتفقان "إذا اتفق الخاطران في توهم صوت الطبيعة ولا يكون هذا الأمر إلا إذا كان ثم هجاء واحد أو هجاءان اثنان لا أكثر (25).

وهذه المسألة قد نبني عليها رأيا يقودنا إلى أن الدوال التي تطابقت بين اللغات وذات مدلول واحد يعني أنها تشكلت منذ البدء –لأن نمو اللغة الآن لا يقوم على صوت الطبيعة إذ يقوم على الاشتقاق والتعريب والنحت وسوى ذلك – مما يعني أن الألفاظ التي ولدت في التشكل اللغوي الأول والمعتمدة على صوت الطبيعة كان لها استمرار منذ الولادة حتى الآن ولم تهجر أو تمت.

فمن أمثلة الدوال التي ولدت في التشكل اللغوي الأول والتي تطابقت بين اللغات صوتا ومعنى، الدال العربي (ردّ) وهو في اللاتينية (REDDERE) ومن المعلوم أن (ERE) كاسعة نكسع بها كثيرا من أفعالهم، إذن REDDERE ليست إلا (رد) العربية لا غير ومن الأفعال في اللغة اليونانية (AGO) ومعناها (ساقَ) وهي ذاتها (حجا) بالعربية وبمعنى (ساقَ) أيضا (26).

بيد أن الأمثلة كثيرة ولا تقتصر على هذين الدالين إذ يجمل بنا أن نشير إلى بعضها كما يظهر الجدول الاتي:

الدال العربي	الدال الأعجمي	لغته
بلوطة	Balanos	اليونانية
باع	Buy	الإنجليزية
قرطاس	Charta	اليونانية
نطاسي	Notus	اللاتينية

ثمّ	Tum	اللاتينية
ذيل	Tail	الإنجليزية
بالة	Pera	اللاتينية
حر	Hierax	اليونانية
ضفيرة	Gephrura	اليونانية
جلا– جهر	Gel – Gal	اليونانية

- **تشكل الفكر**

يتشكل الفكر في بادئ الأمر على شكل (التفكر) بوصفه تأملا وصفيا، بيد أن الفكر بما يحمله هذا الدال من مفهوم قد أشير إليه سابقا إنما "يبدأ متوهجا بالانصباب في قالب اللغة" (27). وهذا بحسب فندريس يعني أن الفكر يتطلب اللغة بوصفها نواة حاضنة لهذا الفكر.

ويتشكل الفكر / التفكير في ذهن الإنسان إن توفرت المقارنة بين الأشياء، وبدون هاتيك المقارنة لا يتحقق التفكير، يقول روسو "يتولد التفكير عن الأفكار إذ نقارن بينها وكثرة الأفكار هي التي تحملت على ذلك فليس بوسع من لا يرى غير شيء واحد أن يقارن"(28).

وللنحو دور مهم في تشكل الفكر إذ إنه ليس مجرد أداة لإعادة إنتاج الأفكار فحسب، بل "إنه المشكل للأفكار والخادم لها وهو المنهج والمرشد الذي نصل به إلى النشاط الذهني عند الفرد "(29).

ويرى لوسيان ليفي في نشوء وتشكل الفكر الإنساني البدائي الملاحظات الآتية (30):

- ليس هناك حقيقة مادية بحتة –بكل ما نعطيه من معنى لهذه الكلمة – لوعي الإنسان البدائي فتفكيره هو بطبيعته باطني.
- تمثل المادة في استيعاب الإنسان البدائي كلا متكاملا لا ينقسم إلى جسد وروح.
- الأهمية الكبرى في استيعاب الناس البدائيين تعود إلى التصورات الجماعية التي تفرض عليها البصمة الباطنية.
- تبرز الصدارة في تفكير الإنسان البدائي الخصائص الباطنية والعلاقات التي لا تعطى في التجربة.

وإن كنا لا نتفق مع بعض الآراء السابقة، إلا أننا نقترب من أن التجربة التي استثنيت – الملاحظة الرابعة – من شرط التفكير البدائي إنما هي شرط وعامل مهم في تبلور الفكر الناضج لدى الإنسان.

وأيا ما كان الأمر فإنه يجمل بنا أن نشير إلى نشأة الفكر العربي ونقف من مراحل تطوره ونموه فقد استغرق تشكل الفكر لدى المجتمع العربي عبر التاريخ حقبا طويلة، شأنه في ذلك شأن الفكر لدى سائر الأمم ويعزى ذلك إلى أن الفكر إنما هو حالة تراكمية مستمرة تحكمها عوامل تاريخية وتتحكم بها جوانب دينية وسياسية واجتماعية.

ففي العصر الجاهلي كان الفكر نتفا في الشعر الجاهلي نراه في ثنايا الأبيات الشعرية وقد تكون أغراض الشعر الجاهلي قضايا فكرية وتأملية تعبر عن البيئة المكانية المحيطة بالشعراء لا أكثر، وهو ما انعكس على فنيات القصيدة الشعرية الجاهلية التي تشترط الوقوف على الطلل/ المكان.

وفي العصور الإسلامية بدأت رحلة التفكير الحقيقية عند العرب لا سيما أن القرآن الكريم طالما قد دعا إلى التفكر لتفسير الظواهر الحياتية بشموليتها، فكان الأثر الإسلامي واضحا كل الوضوح في تشكل الفكر العربي.

وبعد مرحلة النبوة امتدت الدولة الإسلامية ونضج الفكر العربي لا سيما بعد خروج الرسالة الإسلامية إلى أنحاء تخطت الجزيرة العربية وهذا أدى إلى تشكل جديد للفكر العربي الإسلامي بعد أن اختلطت الشعوب الإسلامية وتعددت الثقافات وامتزجت في ثقافة الإسلام الواحدة.

ومن عوامل تشكل الفكر العربي الشمولي أيضا في العصور المتقدمة دخول الأجناس غير العربية للجزيرة العربية بفضل الإسلام أيضا وكان لهم ولمصنفاتهم التي كانت وما تزال تتير درب الفكر العربي الإسلامي بشموليته الفضل الكبير في تراكمية الفكر العربي ونضوجه.

كما كان للترجمة في تلك العصور دور كبير في صقل التجربة الفكرية العربية فقد اطلعوا على فكر غيرهم من شعوب الأرض: الأدبي والعلمي.

أما مرحلة بدء تشكل الفكر العربي ونهوضه في العصر الحديث فكانت وليدة الحملة الفرنسية على مصر عام 1798م وما نتج عنها من تواصل ما بين الشرق والغرب، وقد لا يتفق البعض مع هذا الرأي انطلاقا من الأهداف التي نشدتها تلك الحملة على مصر وهي بدون أدنى شك ليست بريئة.

وإن كنا نتفق مع الآخرين على أن أهداف الحملة الفرنسية على مصر لم تكن بريئة، إلا أننا نمضي قدما في تبني دور تلك الحملة في بناء بواكير الفكر العربي الحديث، لا سيما أن تلك الحملة الفرنسية قد فشلت في تحقيق أهدافها بسبب تبلور الفكر المصري المضاد لكل المخططات النابليونية، وبذا تكون الحملة سببا في تشكل الفكر المضاد.

ومع فشل أهداف تلك الحملة إلا أن المصريين استطاعوا تجيير ما أنجزته في مصر لصالح الفكر المصري القومي.

فكان من آثار (31) تلك الحملة على المستوى الإداري والتنظيمي إنشاء أول وزارة مصرية وهذا أعطى المصريين الفرصة لممارسة الفكر السياسي، ومن أثارها العلمية تأسيس المجمع العلمي المصري ونشر المدنية الأوروبية علمها ومعارفها في مصر وتقديم الدراسات والأبحاث للمصريين؛ وهذا أعطاهم الفرصة لممارسة الفكر العلمي، ومن هاتيك الآثار الأكثر أهمية تبلور فكر مصري ممنهج ودقيق كرد فعل على الحملة الفرنسية بكل جوانبها السياسة والفكرية التحررية وحتى الدينية والثقافية.

- **تشكل الثقافة**

يشير دينيس الكسندروفيتش إلى عناصر أساسية للثقافة وهذه العناصر بحسب رأينا تأخذ الجزء الأكبر في تشكل الثقافة كونها عملية تعاقبية "تحمل طابعا تراكميا وتعتبر الخبرة والتقاليد (الماضي) والابتكار (الحاضر) عناصر مهمة للثقافة " (32)

تتشكل الثقافة تبعا لعوامل كثيرة تتصل أيما اتصال بالتطور التاريخي لها، ولما كانت الثقافة متوارثة من جيل إلى جيل وتتسم بالتراكمية مع مرور الوقت، استحالت سلوكا طبيعيا ينمو ويمارس في فكر جمعي اجتماعي.

فمن أهم تلك العوامل التداخل الإنساني في العمليات البيولوجية للطبيعة (33)، ومنها أيضا اللغة والفكر، ومنها أيضا أن الثقافة تتشكل استجابة لمتطلبات بيئية في مجتمع ما من صنيع الإنسان كالعادات والتقاليد والمفاهيم والأفكار والمعتقدات والأيديولوجيات ومن غير صنيع الإنسان كالدين، كما تتشكل الثقافة لأجل إثبات الذات المجتمعية وحتمية وجودها. وأخيرا تتشكل الثقافة بفعل التقدم التكنولوجي الذي يشهده العصر الحديث.

والسؤال الأول الآن، هل يمكن أن تتشكل ثقافات متعددة ضمن حيز مكاني وبيئي واحد؟

الجواب نعم، يمكن أن يكون هناك تعدد ثقافي ضمن البلد المجتمع الواحد، فالتعدد الثقافي له صورتان:

الصورة الأولى " بالمعنى المجتمعي لأنه يشير إلى التعايش بين الناس على اختلاف مشاربهم وأعراقهم كالشأن في المجتمعات متعددة الثقافات" (34).

وهذا النوع من الثقافة يندرج تحت الخصوصيات الثقافية القائمة على العرقية "فلكل عرق من الأعراق عناصره الثقافية التي تميزه عن الأعراق الأخرى فخصوصيات الشركس الثقافية تختلف مثلا عن خصوصيات الشيشان (في المجتمع الأردني (35*) وللأرمن خصوصيات ثقافية أيضا تميزهم عن غيرهم من الأعراق" (36).

الصورة الثانية "بالمعنى الفردي لأنه يصف الأشخاص الذين ينتمون إلى مجتمعات خطاب متباينة ومن ثم ينعمون بالموارد اللغوية والاستراتيجيات للحاق والتماهي في ثقافات متعددة في استخدام اللغة ولا تكون الهوية الثقافية للأفراد متعددي الثقافة هي نفسها الهوية الثقافية لدى أبناء اللغة متعددي الألسن" (37).

والسؤال الثاني، هل يمكن لحوار الثقافات وللدمج الثقافي تشكيل ثقافات بديلة مشتركة؟

كانت مسألة حوار الثقافات ودمجها محل جدل واسع لدى العديد من المفكرين، ففريق منهم ذهب إلى فكرة الحوار والدمج قابلة للحياة وقادرة على تشكيل ثقافة واحدة مشتركة تنأى بنفسها عن خصوصيات الثقافات المتحاورة والمدمجة، فتشكل تقاربات بين الشعوب ومجتمعاتها، وفريق آخر ذهب إلى نقض هذه الفكرة جملة وتفصيلا كونها فكرة غير بريئة البتة انطلاقا من أن فكرة الحوار تقتضي التنظيم الممنهج وأن الحوار يقتضي وجود مشكل سابق له ألا وهو الصراع والاحتدام، وطبيعي أن تصبح الفكرة غير بريئة كون المتحاور الأقوى سيهيمن على المتحاور الضعيف.

وانطلاقا من هذا الفهم انحصرت فكرة حوار ودمج الثقافات بحسب الفريق الثاني بين الشرق والغرب لأنها أصلا تعكس حالة الصدام والصراع الحضاري والثقافي والقيمي بينهما، فرأوا أن المحاور الغربي لن يتجنب في حواره كونه الأقوى تمرير المغالطات وخلط الأوراق وهي فكرة بنى عليها المفكرون آرائهم ومنه محمد عابد الجابري الذي يقول "إن الصدام الحضاري ليس صداما حول المسيح أو كونفوشيوس أو النبي محمد بقدر ما هو صراع سببه التوزيع غير العادل للقوة والثروة والنفوذ والازدراء التاريخي الذي تنظر به الدول والشعوب الكبرى إلى الصغرى الثقافية وسيلة للتعبير عن المنازعات وليست سببا فيها" (38)

ويذهب الجابري إلى أن مسألة دمج وحوار الثقافات ليست بريئة، ويبدو من رأيه أنه ينظر إلى نتائج هذا الدمج الذي سيكون حديا غير منصف منتصرا للثقافة الأقوى "ففي الخمسينات والستينات وما قبلها وهي المرحلة التي تريد العولمة ودعاتها إقصاءها وإعدامها كانت الثقافة ثقافتين: ثقافة استعمارية إمبريالية وثقافة وطنية تحررية أما اليوم فالتصنيف الذي يريد تكريسه الواقعون تحت تأثير أيدولوجيات العولمة هو ذلك الذي يجعل الثقافة صنفين: ثقافة الانفتاح والتجديد وثقافة الانكماش والجمود ولو سموا الأشياء بمسمياتها لقالوا ثقافة التبعية والثقافة الوطنية" (39).

بيد أنه لا ضير إن راعى هذا الدمج وهذا الحوار خصوصيات الثقافات الخاضعة لهاتين العمليتين بحيث تبقيان على التشاركية فيما بين الثقافات المدمجة، لكن المشكلة تكمن في ثقافة المتحاور الغربي، بمعنى أن "الثقافة الغربية لا تكتفي كالثقافات الكلاسيكية بإلحاق ثقافات متعددة والسماح لها بالحياة داخل مدينة واحدة تسيطر عليها وتتحكم فيها القيم إنها تطلب حل جميع الثقافات الأخرى ثم استبدالها بثقافة واحدة شكلا ومضمونا" (40).

ومهما يكن من شأن فإن نظرية دمج وحوار الثقافات لم يكتب لها النجاح ولن تتمكن من تشكيل ثقافة واحدة حقيقية تعبر عن الخصوصية الثقافية بتفاصيلها التي لا يمكن أن تتماهى وغيرها، فحقائق التاريخ أشارت وطالما تشير إلى إخفاق فكرة الدمج والحوار بين الثقافات، إذ لم تعد الفكرة مستساغة مع أنها كانت تتخذ من نشر العلوم بين الشعوب مبررا لها، في حين كانت تخفي هدف الهيمنة المنشود على ثقافة الآخر الضعيف، فذريعة "نشر العلم وتحقيق الرفاهية

للجميع مسألة ممكنة على أساس الثقافة الأخرى وأن التقدم الصناعي والاقتصادي الغربي اليوم ليس دليلا على رقي النظام الاجتماعي أو تقدم الحياة الثقافية وإن كل ثقافة من ثقافات الأمم على تمايزها واختلافها لديها القابلية والاستعداد لاقتباس التقنية بين النمو الاقتصادي والصناعي من جهة والقم القومية والذوقية من جهة أخرى"(41)

القضية الثالثة

علاقة اللغة بالفكر والثقافة

العلاقة بين اللغة والفكر والثقافة علاقة وطيدة تكاد تشكل حلقة واحدة تختزل النشاط الذهني الذي يميز بني البشر عن سائر الخلق، فبالنسبة إلى علاقة اللغة بالفكر لا نغالي إن قلنا إن اللغة هي وعاء التفكير فهي "جزء من تركيبنا العضوي وتهيمن على وجداننا وتفكيرنا ورؤيتنا لهذا العالم من حولنا" (42)

واللغة هي الطريقة التي يبنى عليها تبادل التفاهم وتوصيل الفكر بين الناس بما يخدم أغراضهم التواصلية.

ويرى سابير أن للغة الدور الأهم في العملية الفكرية ليس على مستوى الفكر الإنساني الفلسفي فحسب، بل وعلى مستوى الفكر الإنسانية العلمي، فيقول إن "المصداقية العالمية للاكتشافات العلمية رهن باللغة التي عبرت عنها" (43)، بيد أن هذا الرأي جوبه بالرفض على صحته والسبب يعزى إلى أن "المناخ العلمي الذي سادت فيه الوضعية المنطقية في ذلك الوقت لم يكن يسمح بمجرد الإشارة الى أن اللغة هي التي تحدد الفكر وليس العكس ولم يكن أحد ليقبل بفكرة أننا سجناء اللغة "(44).

ولروسو رأي في علاقة اللغة بالفكر إذ يرى في دور اللغة بوصفها منطوقة اختلاف عن اللغة بوصفها مكتوبة فالمنطوقة تعبر عن المشاعر في حين المكتوبة هي التي تعبر عن التفكير، يقول: "فالمرء يؤدي مشاعره عندما يتكلم وأفكاره عندما يكتب فهو عند الكتابة ملزم بأن يحمل كل الألفاظ على معناها العام"(45)

واللغة هي وسيلة نقل الرموز ذات القيمة من ذهن المرسل (المتكلم) إلى ذهن المستقبل (السامع)، يقول فندريس إن استعمال "الرمز يعين الإنسان على سهولة التصور لا سيما أنه عندما ينقله إلى ذهن آخر فإنما ينقله إليه مستقلا عن الانطباع المباشر وهذا الذكاء الناشئ يجعل من اللغة شيئا فشيئا آلته الخاصة وأداة التفكير" (46). ونخلص من الفهم السابق أن اللغة هي وعاء التفكير وهي وأداته لا سيما اللغة المكتوبة.

أما بالنسبة إلى علاقة اللغة بالثقافة فهي علاقة جلية تقوم على تبادل التأثير فتارة اللغة تؤثر في الثقافة وتارة أخرى تؤثر الثقافة في اللغة. لدرجة أن فكرة فصل اللغة عن الثقافة تكاد تكون مستحيلة وغير عملية.

وتناولت كلير كرامش مسألة العلاقات بين اللغة والثقافة بشكل تفصيلي ودقيق في كتابها الموسوم بـ (اللغة والثقافة)، فتناولت فيه نظرية سابير الموسومة بـ(النسبية اللغوية) التي انتهت إلى فهمين (47): الأول أن هناك اعترافا في الوقت الراهن بأن اللغة بوصفها شفرة تعكس هموما ثقافية وتضع قيودا على الطريقة التي يفكر بها الناس، الثاني: الإقرار بأهمية السياق في إتمام المعاني التي تنطوي عليها الشفرة اللغوية.

وترى كرامش أن كلا الفهمين مرتبطين بالثقافة إذ ربطت الأول بالثقافة بوصفها مشفرة دلاليا في اللغة نفسها بينما ربطت كرامش الفهم الثاني بالثقافة كما تتجلى في الاستخدام الفعلي للغة. (48)

ويبدو أن كرامش قد تنبهت إلى فكرة اللغة المكتوبة التي وصلها فندريس بعملية التفكير أكثر من اللغة المنطوقة، ولكنها وصلت دورها بالجانب الثقافي لا الفكري كما فعل فندريس، تقول كرامش " كان اكتشاف الكتابة واختراع الطباعة فيما بعد إيذانا بتغيير جذري في العلاقة بين اللغة والثقافة فكانت الكتابة عونا في الحفاظ على التراث التاريخي للأمم وتوحيد

الذاكرة الجمعية وعونا على تفسير الأحداث وتقييمها ومن ثم أصبحت الثقافة النصية السائدة في البحث العلمي والمؤسسات العلمية على السواء" (49).

ولما كانت الثقافة عبارة عن "فئة خاصة من الأشياء والظواهر التي تعتمد على قدرة الإنسان على التعبير بالرموز التي يتم تناولها في السياق غير الجسدي" (50)، أصبحت هذه الرموز وهذه الإشارات المساعد الحقيقي في "صنع ما نسميه الاستدلالات السياقية ذات الصلة في استحضار الخلفية الثقافية والتوقعات الاجتماعية الضرورية لتفسير الكلام" (51).

وعطفا على الفهم السابق نرى أن للغة دورا مهما في الثقافة وإيصال مفاهيمها وخصوصياتها للطرف الآخر.

بيد أن هناك دورا تؤثر فيه الثقافة في اللغة إذ ترى كرامش أن الثقافة تؤثر بدورها على "استخدام اللغة المنطوقة فهي التي تمنح اللغة المطبوعة بعدا اجتماعيا وتمنح الأعراف الثقافية النص جواز المرور إلى القارئ فالمهم ليس ما نكتبه أو لمن أو في أية ظروف، ولكن المهم هو نوع النص الذي نقدمه.. تسمح به الأعراف الثقافية للمجتمع وهذه الأشكال التي تتم داخل اللغة أو التي نسميها أشكال التفاعل والتفسير إنما تشكل جزءا من النص الروائي الذي تفرضه الثقافة على مستخدمي اللغة "

وبذا يكون التأثير متبادلا بين اللغة والثقافة ولكل منهما دور مؤثر في الآخر.

المصادر والمراجع:

1- ابن منظور محمد بن مكرم المصري الإفريقي – لسان العرب، دار صادر، بيروت، 1414هـ، مادة لغا.

2- فرديناند دو سوسور – علم اللغة العام، ترجمة يوئيل يوسف عزيز مراجعة مال يوسف المطلبي، دار آفاق عربية(3)، بغداد، 1985، ص 6

3- عبد الرحمن البوريني – اللغة العربية أصل اللغات كلها، ط 1، دار الحسن للنشر والتوزيع، الأردن، عمان، 1998، ص 53

4- فندريس – اللغة، ترجمة عبد الحميد الدواخيل ومحمد القصاص، تقديم فاطمة خليل، المركز القومي للترجمة، العدد1889، طبعة 2104، القاهرة 2014، ص 10

5- كلير كرامش – اللغة والثقافة، ترجمة أحمد الشيمي مراجعة عبد الودود العمراني، منشورات وزارة الثقافة والفنون والدراسات الثقافية (14)، ط1، قطر، الدوحة، 2010، ص 220

6- ابن منظور – لسان العرب، مصدر سابق، مادة فكر.

7- ساجد صبري نعمان – مفهوم العلم في الفكر الإسلامي، مجلة الأستاذ عدد209، المجلد الأول، 2014، 399

8- المصدر السابق، ص 400

9- ابن منظور – لسان العرب، مصدر سابق، مادة ثقف.

10- محمد جلاء ادريس – العلاقات الحضارية، ط1، دار القلم، دمشق، 2003، ص 20: نقلا عن تيلور في كتابه الثقافة البدائية.

11- بطرس بطرس غالي – الفرنكفونية والحوار بين الثقافات، مجلة السياسة الدولية العدد 146، 2001ة، ص 9

12- دينيس الكسندروفيتش وزملاؤه – تاريخ الثقافة العالمية، ترجمة عماد طحينة، ط1، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، دبي، 2014، ص7.

13- كلير كرامش – اللغة والثقافة، مصدر سابق، ص 202

14- دينيس الكسندروفيتش وزملاؤه – مصدر سابق، ص 16

15- فندريس – اللغة، مصدر سابق، ص 3

16- فندريس – اللغة، مصدر سابق، ص 9

17- جان جاك روسو – محاولة في أصل اللغات، تعريب محمد محجوب تقديم عبد السلام المسدي، ط1، مشروع النشر المشترك، دار الشؤون الثقافية العامة (آفاق عربية)، بغداد، 1984، ص 28

18- فندريس – اللغة، مصدر سابق، ص 33ص7

19- جان جاك روسو محاولة في أصل اللغات، مصدر سايق، ص 29

20- جان جاك روسو – مصدر سابق، ص 35

21- فندريس – مصدر سابق، ص 37

22- فندريس – مصدر سابق، ص 36

23- روسو – مصدر سابق، ص 35

24- عبد الرحمن البوريني – اللغة العربية أصل اللغات، مصدر سابق ص 9

25- الأب أنستاس ماري الكرملي – نشوء اللغة العربية واكتمالها – مجمع اللغة العربية، المطبعة العصرية، مصر، القاهرة، 1938، ص 7.

26- المصدر السابق، ص 7

27- فندريس – مصدر سابق، ص 6

28- جان جاك روسو – مصدر سابق، ص 25

29- كلير كرامش – مصدر سابق ص 145

30- دينيس الكسندروفيتش وزملاؤه – مصدر سابق ص 104

31- منذر معاليقي – معالم الفكر العربي في عصر النهضة العربية، ط1، دار افرأ، لبنان، بيروت، 1986: انظر ص 56 – 71.

32- دينيس الكسندروفيتش – مصدر سابق، ص 16

33- كلير كرامش – مصدر سابق ص26

34- كلير كرامش مصدر سابق ص 135

35- ما بين القوسين من وضعي.

36- عمر احمد الهمشري – مدخل الى التربية، ط1، دار صفاء للنشر والتوزيع، الأردن، عمان، 2001، ص154.

37- كلير كرامش – مصدر سابق، 135.

38- محمد عابد الجابري – قضايا في الفكر المعاصر ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1977م، 129

39- المصدر نفسه، ص 144

40- محمد جلاء ادريس – العلاقات الحضارية، ط 1، دار القلم للنشر، دمشق، 2003، ص 24

41- إحسان نراقي – التراث والتطور، ترجمة عبد الوهاب علوب، الهيئة العامة لقصور الثقافة –دار آفاق عربية، القاهرة، ص 1998 ص22

42- كلير كرامش – مصدر سابق ص 129

43- المصدر السابق ص 128

44- المصدر السابق.

45- جان جاك روسو – مصدر سابق ص 44

46- فندريس – مصدر سابق ص 5

47- كلير كرامش – مصدر سابق، ص 31

48- المصدر السابق: انظر ص 31 فما فوق

49- المصدر السابق، ص 108

50- وايت.ل. أ – مفهوم الثقافة – مختارات من دراسات الثقافة، المجلد الأول سانت، بطرسبورغ1997، ص 26

51- كلير كرامش – مصدر سابق، ص 52

Sources and references:

_____

1- Ibn Manzoor Muhammad bin Makram Al-Masry Al-Afriqi - Lisan Al-Arab, Dar Sader, Beirut, 1414 AH, subject of language.

2- Ferdinand de Saussure - General Linguistics, translated by Yoel Youssef Aziz, reviewed by Youssef Al-Muttalibi, Dar Arab Horizons (3), Baghdad, 1985, p. 6

3- Abdul Rahman Al-Bourini - The Arabic language is the origin of all languages, 1st edition, Dar Al-Hassan for Publishing and Distribution, Jordan, Amman, 1998, p. 53

4- Fenderes - Language, translated by Abdel Hamid Al-Dawakhel and Muhammad Al-Qassas, presented by Fatima Khalil, The National Center for Translation, Issue 1889, Edition 2104, Cairo 2014, p. 10

5- Claire Karamesh - Language and Culture, translated by Ahmed Al-Shimi, revised by Abdel-Wadoud Al-Omrani, Publications of the Ministry of Culture, Arts and Cultural Studies (14), 1st edition, Qatar, Doha, 2010, p. 220

6- Ibn Manzoor - Lisan Al-Arab, a previous source, thought material.

7- Sajid Sabri Noman - The Concept of Science in Islamic Thought, Al-Ustad Magazine No. 209, Volume 1, 2014, 399

8- The previous source, p. 400

9- Ibn Manzoor - Lisan Al-Arab, a previous source, an educated subject.

10- Muhammed Galaa Idris - Civilizational Relations, 1st edition, Dar Al-Qalam, Damascus, 2003, p. 20: quoted by Taylor in his book Primitive Culture.

11- Boutros Boutros-Ghali - Francophonie and Dialogue between Cultures, International Policy Journal, Issue 146, 2001, p. 9

12- Denis Alexandrovich and his colleagues - History of World Culture, translated by Emad Tahina, 1st edition, Abu Dhabi Tourism and Culture Authority, Dubai, 2014, p. 7.

13- Claire Karamish - Language and Culture, previous source, p. 202

14- Denis Alexandrovich and his colleagues - previous source, p. 16

15- Vendris - Language, previous source, p. 3

16- Vendris - Language, previous source, p. 9

17- Jean-Jacques Rousseau - An Attempt at the Origin of Languages, Arabization of Muhammad Mahjoub, presented by Abdel Salam Al-Masdi, 1st Edition, Joint Publication Project, House of General Cultural Affairs (Arab Horizons), Baghdad, 1984, p. 28
18- Vendris - Language, previous source, p. 33, p. 7
19- Jean-Jacques Rousseau, An Attempt on the Origin of Languages, a contextual source, p. 29
20- Jean-Jacques Rousseau - previous source, p. 35
21- Fendris - previous source, p. 37
22- Fendris - previous source, p. 36
23- Rousseau - previous source, p. 35
24- Abd al-Rahman al-Borini - The Arabic language is the origin of languages, previous source, p. 9
25- Father Anastas Marie Al-Karmali - The Emergence and Completion of the Arabic Language - The Arabic Language Academy, the Modern Press, Egypt, Cairo, 1938, p. 7.
26- The previous source, p. 7
27- Fendris - previous source, p. 6
28- Jean-Jacques Rousseau - previous source, p. 25
29- Claire Karamesh - previous source, p. 145
30- Denis Alexandrovich and his colleagues - previous source, p. 104
31- Munther Maaliki - Landmarks of Arab Thought in the Age of the Arab Renaissance, 1st edition, Dar Afra, Lebanon, Beirut, 1986: see pp. 56-71.
32- Denis Alexandrovich - previous source, p. 16
33- Claire Karamesh - previous source, p. 26
34- Claire Karamish, previous source, p. 135
35- What is between the brackets is from my position.
36- Omar Ahmed Al-Hamshari - Introduction to Education, 1st Edition, Dar Safaa for Publishing and Distribution, Jordan, Amman, 2001, p. 154.
37- Claire Karamesh - previous source, 135.
38- Muhammad Abed Al-Jabri - Issues in Contemporary Thought, 1st edition, Center for Arab Unity Studies, Beirut, 1977 AD, 129
39- The same source, p. 144
40- Muhammad Jalaa Idris - Civilizational Relations, 1st Edition, Dar Al-Qalam Publishing House, Damascus, 2003, p. 24
41- Ihsan Naraqi - Heritage and Development, translated by Abdel Wahhab Alloub, General Authority for Cultural Palaces - Arab Horizons House, Cairo, p. 1998, p. 22
42- Claire Karamesh - previous source, p. 129
43- The previous source, p. 128
44- The previous source.
45- Jean-Jacques Rousseau - previous source, p. 44
46- Fendris - previous source, pg. 5
47- Claire Karamesh - previous source, p. 31
48- The previous source: see p. 31 and above
49- The previous source, p. 108
50 - White.L. A - The Concept of Culture - Selections from Culture Studies, Volume I St., Petersburg 1997, p. 26
51- Claire Karamesh - previous source, p. 52